٤٩/١/ك/٩٩

المعرفة

AL - MA'RIFA

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٥٠٨ السنة ٤٤ ذي الحجة ١٤٢٦هـ - كانون الثاني ٢٠٠٦ م

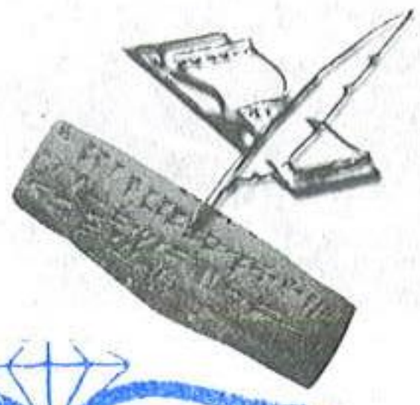

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٦٠٩
التاريخ ١٢/١/١٨

الهيئة الاستشارية

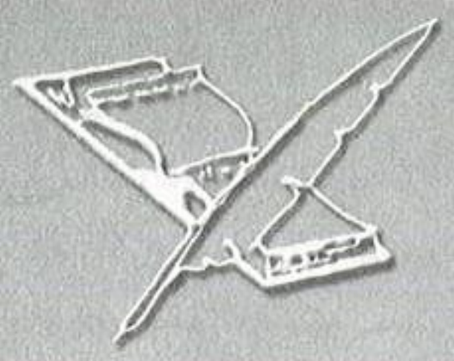

د. شاكر الفحّام

د. عبد الكريم اليافي

د. حسام الخطيب

د. سهيل زكّار

د. طيّب تيزيني

أ. جورج صدّقني

هيئة التحرير

أ. كوليت خوري — د. عصام خوري

أ. شوقي بغدادي — د. سمير حسن

د. عبد الله أبو هيف

رئيس مجلس الإدارة

الدكتور محمود السيّد

رئيس التحرير

علي القيّم

أمين التحرير

محمد سليمان حسن

٣٠٠

جان سوفاجيه

المستشرق الفرنسي الذي عاش حلم حلب (١٩٠١ - ١٩٥٠)

د. كارين صادر(*)

أحب بلدين وانتمى إلى حضارتين، وحلق بجانحين. ومع أن حياته لم تمهله أو تنتظره حتى يكمل كل ما يجول في رأسه ويتحرك على أوراقه من أفكار وإرهاصات أبحاث، إلاّ أنه خلّف الكثير الذي يمنحه فرصة العيش بيننا رغم أنه في دنيا الحق منذ زمن، وهكذا كان له أن يعيش أيضًا مرتين؛ مرة زمنية بجسده وعقله وأخرى فكرية فيما خلفه من أعمال تكتب له الخلود.. إنه المستشرق جان سوفاجيه.

(*) د. كارين صادر: باحثة في التراث العربي، من لبنان الشقيق.

- العمل الفني: الفنان طاهر البني.

نبذة من حياته:

هومستشرق فرنسي بحاثة. ولد عام ١٩٠١ في مدينة "NIORT" من أعمال دوسيفر، وفيها تلقى تعليمه الأول، ثم انتقل إلى باريس وأتقن العربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية فيها. سافر إلى دمشق سنة ١٩٢٤ لينضم إلى فريق المعهد الفرنسي فيها، وفي عام ١٩٢٩، أصبح سكرتيره العام.

أحب سورية فسكنها وسكنته مدة طويلة دون أن يحس بغربة تدفعه إلى مغادرتها. إلا أنه في عام ١٩٣٧ عاد إلى باريس ليكون أستاذًا في مدرسة الدراسات العالية، ثم مديرًا لدراسات تاريخ الشرق الإسلامي فيها، وهو المركز الذي استحدث خصيصًا له. كما أنه كان يحاضر في مدرسة اللغات الشرقية، ويعطي دروسًا في الفن الإسلامي بمدرسة «اللوفر» (١٩٤١ - ١٩٤٤)، وأيضًا في قسم اللغة العربية بجامعة باريس.[١]

وقد سعى جادًا أثناء إقامته الطويلة في سورية إلى جمع ما يتيسر له من الوثائق والمصادر، وقد تمكن من حيازة كمية ضخمة منها تكفي بذاتها لتغذية حياة طويلة من العمل في ميدان التأليف. وقد وضع كل ما أفاد من دراسته وتجاربه السابقة في خدمة الكرسي الذي أحدث له.

قام برحلات عدة إلى كل من تركيا (١٩٣٢) وفلسطين (١٩٣٣) والعراق وإيران (١٩٣٤)، وكان مع إجادته العربية يحسن التركية والفارسية. وجمع من هذه الرحلات ملاحظات ونصوصًا أثرية مصورة نقلاً عن مخطوطات. وكانت هذه زاده ورافده في إنجازه العديد من الأبحاث والدراسات.

وكانت سورية نقطة انطلاق نشاطه العلمي؛ فهي القطر الذي عرفه بشكل خاص، وكرّس له القسم الأكبر من نتاجه فتابع تطور مدنه، وأحصى آثار مدينتي حلب ودمشق فيه. وكتب عن الأبنية الأيوبية وعن الخانات وطرق البريد والحج، وعن بريد الجياد في الإمبراطورية المملوكية، وعن الغساسنة ومدينة سيرجيوس (الرصافة) وغيرها.[٢]

وشارك في عام ١٩٣٧ في إحصاء المصنّفات التي تنشرها مجلة الدراسات الإسلامية. وقد تفرد في أساليب بحثه. فجمع إلى الآثار فن الآداب فأحياهما. توفي في كاربو عام ١٩٥٠، وكرّمه المعهد الفرنسي في دمشق بعد وفاته بإصدار كتاب يحمل عنوان «ذكرى جان سوفاجيه»، وذلك في عام ١٩٥٤.

- آثاره العلمية:

بدأ نشاطه العلمي في عام ١٩٢٨، عندما نشر مقالاً في مجلة سورية عن «مشهدي الحسين والشيخ محسن في

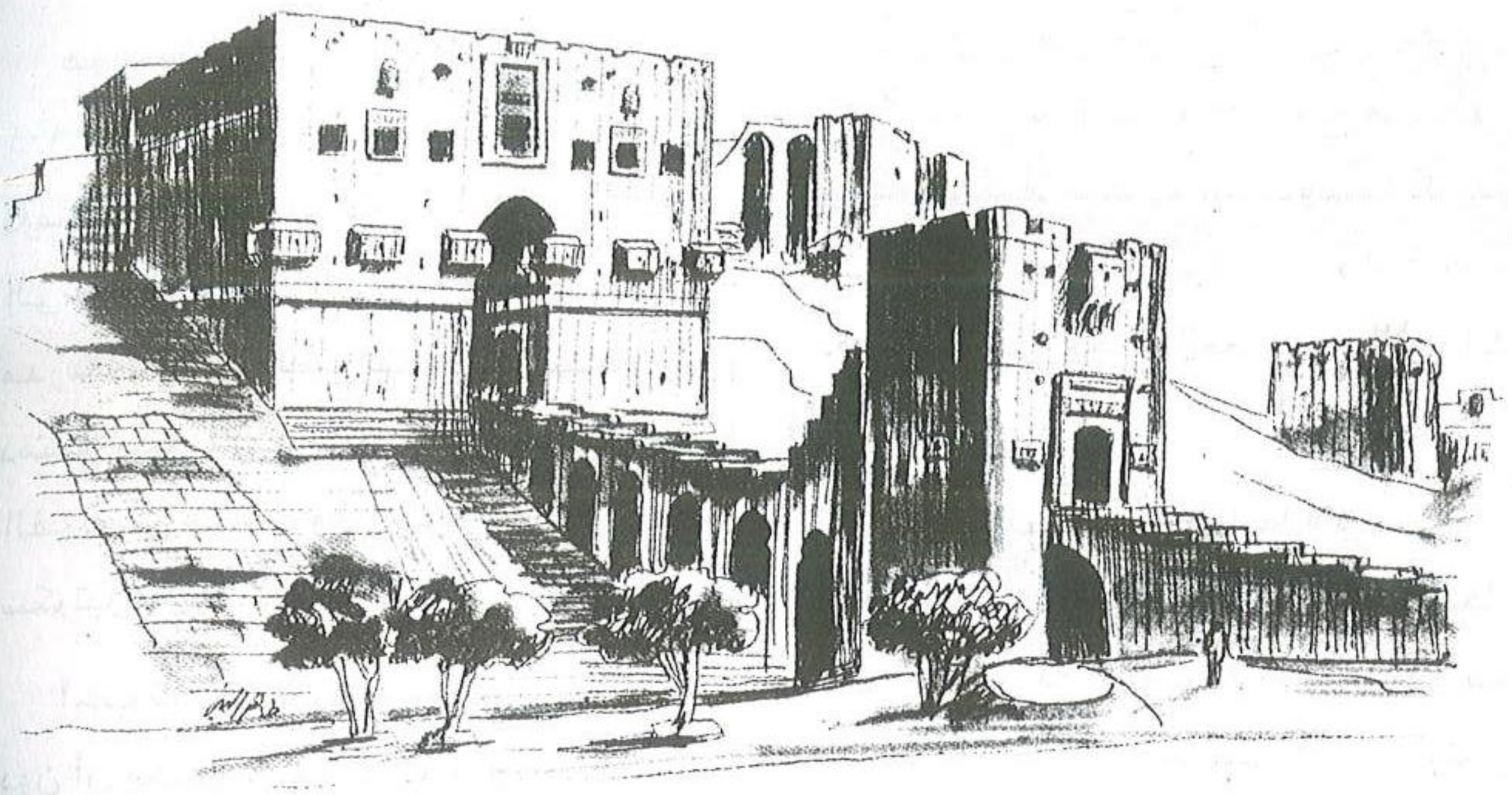

حلب» وانتهى بعد إعداد اقتراح إصلاح الطباعة العربية في عام ١٩٤٩. وبين هذين التاريخين نشر أكثر من ثمانين بحثًا، وصل بعضها إلى خمسين صفحة[٣].

وإن آثار جان سوفاجيه متعددة وافرة ونفيسة، وهي بين مقال وتحقيق وترجمة وتصنيف، وكان لمدينة حلب فيهم حصة الأسد، **ومن أهم ما كتبه عن حلب** نورد:

- مزاران شيعيان في حلب: سيريا، ٩، ١٩٢٨.

- السور الأول لمدينة حلب: منوعات المعهد الفرنسي بدمشق، ١، ١٩٢٩.

- مسرد الآثار الإسلامية في مدينة حلب: مجلة الدراسات الإسلامية، ١٩٣١. وقد نقله إلى العربية الدكتور أسعد طلس في عام ١٩٥٦.

- كتاب الدرر المختارة لابن الشحنة: وقد قام بترجمة بعض أجزائه ترجمة دقيقة، وعلق عليه تعليقًا صحيحًا، وذيّله بترجمة مصطلحات العمران. طبع الجزء الأول منه في المطبعة الكاثوليكية في بيروت عام ١٩٣٢، والآخر هو من منشورات المعهد الفرنسي في دمشق عام ١٩٣٤.

- مختارات من كتاب «بغية الطلب» لابن العديم: متنًا وترجمة عن مخطوط مكتبة استانبول، وقد نشره في مجلة الدراسات الإسلامية عام ١٩٣٢.

- تخطيط تاريخي لمدينة حلب: نشر في الدراسات الإسلامية عام ١٩٣٤.

- حلب أيام سيف الدولة: وقد كتب هذا البحث في العيد الألفي للمتنبي في بيروت عام ١٩٣٦.

- تل حلب: وصدر ضمن المنوعات السورية المهداة إلى ديسو باريس في عام ١٩٣٩.

- حلب: وهي دراسة عن توسع مدينة سورية من المدن الكبرى منذ نشأتها إلى أواسط القرن التاسع عشر. رسالة دكتوراه في الآداب، باريس، عام ١٩٤١.

- كنوز الذهب في تاريخ حلب لسبط بن العجمي: وقد عمل على ترجمة الجزء الثاني منه ترجمة دقيقة، وأضاف التعليقات والشروحات الصحيحة، وذيّله بترجمة مصطلحات العمران. وقد صدر عن المعهد الفرنسي في دمشق عام ١٩٥٠.

ومن **تآليفه وبحوثه الأخرى** نذكر :

- الآثار التاريخية في دمشق.
- خيول بريد المماليك.
- أبنية مدينة دمشق.
- دمشق وسورية الجنوبية.
- أخبار الصين والهند.
- المستكشفون العرب بين المستكشفين المشهورين.
- قلعة دمشق.
- قبر صلاح الدين التذكاري.
- محطة بريد مملوكية.
- الخانات السورية على طريق الحج.
- مخطط مدينة دمشق في العهود القديمة. وغيرها.

أما **آخر أعماله المنشورة** فكان بحثًا في «ضبط أسماء المماليك وألقابهم وتفسير معانيها».

ومما كان قد جهزه للطبع أو أعدّه أو يعمل فيه:

- المسجد الأموي في المدينة.
- لغة البناء في دمشق.
- المدخل إلى دراسة الخزف الإسلامي.
- قصور الأمويين في سورية.
- التصورات الشعبية الإسلامية في العصر الوسيط.

وإن رجلاً بهذه الغزارة في الإنتاج على قصر ما أتاح له العمر من فسحة للعطاء لدليل على توقدّ ذهني نادر مشحوذ بأدوات عملية وثقافية عالية، ورغبة ملتهبة لا تفتر، وكأنه كان يعلم بضيق الوقت المتاح لإنجاز كثرة من الأعمال التي تشغله.

-عمله في خدمة مدينة حلب:

عمل سوفاجيه من أجل حلب مدة ست سنوات تبدأ في عام ١٩٣١، وهي السنة التي قدم فيها إلى حلب مكلفًا بإحصاء

آثارها. وتنتهي في عام ١٩٣٧ حين غادر إلى فرنسا لإنجاز أطروحة الدكتوراه التي جعل حلب موضوعها، وكان عنوانها «حلب: دراسة تطور مدينة سورية كبيرة (من نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر)». وبين هذه السنوات كان سوفاجيه يعيش حلم حلب القديمة، ويحاول أن يبحث عنها بحث العاشق عن معشوقته المفقودة بهمّة لا تفتر وجهد لا يكلّ.

وبعد حصوله على الأطروحة انتهت لدى سوفاجيه مرحلة عشق عابر، لتبدأ مرحلة هيام لا نهاية له مع هذه المدينة التي ارتبط بكل معالمها وعاش كل تاريخها وأراد استنطاقه وحثه على الظهور مجددًا والتحرك أمامه.

وكان سوفاجيه قد نشر في بداية حياته العلمية مقالاً حول «مشهدي الحسين والشيخ محسن في حلب» عام ١٩٢٨. ثم أتبع ذلك بمقال تضمن «إحصاء الآثار الإسلامية في مدينة حلب» وقد نشر في مجلة الدراسات الإسلامية بباريس سنة ١٩٣١، ثم طبع في كتاب مستقل يقع في نيف وخمسين صفحة.

وتتالت بعدها الأبحاث والدراسات التي نوهنا بها فيما سبق حتى سنة ١٩٤١، التي طبع فيها أطروحته عن حلب.

وسنقوم فيما يأتي باستعراض اثنين من أهم مؤلفاته عن حلب للوقوف على روح سوفاجيه المستشرق والباحث

١- كتاب: حلب، دراسة تطور مدينة سورية كبيرة من نشأتها حتى منتصف القرن التاسع عشر.

هو أحد أهم آثار سوفاجيه، ليس لأنه أضخمها حجمًا، أو لأنه أطروحة نال عليها درجة الدكتوراه فحسب، بل لأنه كتاب هام بمضمونه وبالنظرات التي عرضها.

يتألف الكتاب من مجلد (نص)، ومجموعة صور تحوي سبعين لوحة تضم خمسًا وسبعين صورة فوتوغرافية، وثمانية وعشرين صفحة، يضاف إليها مقدمة في عشر صفحات، ولائحة بالمصادر في ست وعشرين صفحة وملاحق في ست وأربعين صفحة.

ويتألف الكتاب من مقدمة ضمنها خطته في مؤلفه، وعدة فصول كانت محاورها الأساسية هي:

- الإطار التاريخي.
- الإطار التاريخي والتطور المديني.
- المعطيات الأثرية.
- صفات التجمع المديني وتطوره.

ويتناول هذا الكتاب تاريخ حلب منذ القرن العشرين قبل الميلاد وحتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وهو يسجل تطورها المديني حقبة حقبة، منذ كانت تجمعًا سكانيًا متواضعًا، حتى توسعها شرقًا في العهدين السلوقي والروماني، ثم

شرقًا وجنوبًا، وشمالاً وغربًا في العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية. والكتاب يعطينا فكرة واضحة عن آثارها القائمة حاليًا: بنائها وتاريخ إنشائها وقيمتها الفنية.

ومن المواضيع الهامة التي تناولها سوفاجيه في كتابه:

- طرحه جوابًا عن سؤال طرحه المؤلف في المقدمة وفي الفصلين الأول والثاني، وهو: الأسباب التي ساعدت على التحول من تجمع سكاني ريفي إلى مدينة ضخمة مزدهرة. وهو يراها اثنين: الأول موقعها الكائن على عقدة الطرق التجارية العالمية التي تصل الغرب بالشرق، والشمال بالجنوب. والثاني: ذكاء سكانها من جهة وجدّهم من جهة أخرى.

- اعتقاده أن كل المنشآت والمرافق الرئيسية وهي: السور والقلعة والساحة العامة والأسواق وشبكة المياه كلها تعود إلى العهد الهيلينستية. أما العهد العربي الإسلامي فلم يضف أي جديد، وكل ما فعله هو إضفاء حلة جديدة؛ فالأسواق والقيساريات والخانات وسوق الخضار ليست إلاّ انحطاطًا سلاليًا للشارع ذي العمدة وللبازيليكا والساحة العامة، وليست الحمامات إلاّ تمثيلاً مبسطاً لحمامات المياه المعدنية. ويضاف إلى ذلك أن أعمال توزيع المياه تتبع طراز العصور القديمة وبشكل مشابه.

وأما المنزل العربي فمشتق من دار السكن الهلينستية. وهو طرح قد تراجع عنه فيما تلاه من دراسات.

أما مزايا سوفاجيه في كتابه فهي:

- إفادته من مصادر مختلفة كالكتب التاريخية، والمذكرات، وكتب الآثار والجغرافية، ووثائق وزارات الخارجية.

- اعتماده طريق علمية جديدة هي استقراء الآثار ومقارنتها بما تقدم المصادر التاريخية.

- معرفته العميقة والممتازة بمدينة حلب، فهو يعرف تاريخها وحاضرها، ومراحل تطورها المديني، وشوارعها، وأزقتها.

- إن مؤلف هذا الكتاب علامة بالآثار والتاريخ وعلم هندسة المدن، وهو يتقن إلى جانب لغته الفرنسية الأم، اللغتين اللاتينية والتركية، ويفهم الألمانية والإنكليزية، ويتقن العربية.

- خطّ سوفاجيه الكتاب بأسلوب رشيق تغلب عليه مسحة أدبية تجعل من قراءته متعة للنفس فضلاً عما تحمله من غذاء للفكر(٤).

- سعيه إلى تدعيم أفكاره بكم من الصور والمخططات والأشكال التي أسهمت في إغناء عمله.

٢- كتاب: الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب:

و هو كتاب أقدم على تصنيفه سوفاجيه باللغة الفرنسية، ثم قام بترجمته الدكتور أسعد طلس في عام ١٩٥٦، أي بعد وفاة سوفاجيه بستة أعوام. **ومما قاله المترجم في وصف الكتاب:** «رأيت أن الكتاب المتقن الذي ألفه المستشرق العلامة الفرنسي البروفسور جان سوفاجيه أستاذي وصديقي المؤرخ المحقق الذي أغرم بالشهباء غرامًا شديدًا حتى ألف عنها كتابه الضخم الذي نال به شهادة الدكتوراه، وهو كتاب مفيد، دقيق، رصين على صغره، فعمدت إلى تعريبه تعريبًا أمينًا وعلّقت عليه تعاليق مفيدة، ثم أضفت إليه معلومات نسيها أو أهملها، وأصلحت أخطاء وقع فيها أو توهمها، فجاء هذا الكتاب وافياً في وصف آثار هذه المدينة الخالدة التي اعتز بالنسبة إليها وأحرص على إشادة مناقبها وحفظ تراثها»(٥).

وقال سوفاجيه في مقدمة هذا الكتاب عن حلب، معللاً سبب تعلقه بها وكثرة دراسته لها:

- «قل أن تجد في الشرق الأدنى مدينة تضارع حلب فيما تحتوي عليه من الآثار الإسلامية التي تعين على دراسة تاريخ العمارة الإسلامية، ويمكننا أن نضعها بعد مدينة القاهرة مباشرة، على الرغم من أن كثيراً من الأمكنة الأخرى تحتوي على عدد من الآثار الجميلة الإسلامية، التي تقدم لمؤرخ الحضارة الإسلامية نماذج متنوعة؛ فالقدس الشريف مثلاً لا يحتوي إلا على آثار دينية، واستانبول وقونية اللتين ازدهرتا ثم سقطتا مع الخلافة الإسلامية العثمانية تحتويان على آثار تمثل لنا قرنين وثلاثة ودمشق نفسها لم تحافظ على ميزتها العمرانية الخاصة لأنها كانت دومًا معرضة للتأثر الأجنبي.

أما حلب، فهي على العكس تقدم لنا سلسلة متواصلة الحلقات من الآثار المدنية والدينية والعسكرية، منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى أيامنا هذه. ويلاحظ أن تلك السلسلة الأثرية ذات أنماط مختلفة وطابع خاص وأنها تاريخ للمدينة على توالي حقبها واختلاف عماراتها»(٦).

وقال مختصرًا أهم المراحل التاريخية لحلب:

«إن حلب في العصور الإسلامية الأولى، وفيما قبل الإسلام، كانت بليدة ثانوية محصورة بين مدينتين عظيمتين هما: «أنطاكية» عاصمة سورية الشمالية، «قنسرين» عاصمة الديار الحلبية، وفي أيام الحمدانيين لمع نجمها فترة ثم خبا.

ومنذ عهد الصليبيين لمع حظ هذه المدينة، ففي عهد السلاجقة غدت حلب،

بسبب وقوعها على تخوم بلاد الرافدين مركز سياستهم في الشرق، كما غدت مركز الدعاية ضد الدولة الفاطمية المبتدعة، وفيها أسست أول مدرسة سورية. وفي نهاية القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، بدأت نهضة المدينة، على الرغم من الغزو التتري الكاسح في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م، وذلك الغزو الذي خلّفها خرابًا مدة ربع قرن، فإنها استمرت في نهضتها قدمًا.

ومنذ هذا العهد صارت حلب مركز القيادة الحربية لحماية حدود الإمبراطورية الشامية - المصرية ضد الصليبيين حكام أنطاكية، ثم ضد الغزاة القادمين من المشرق ومن قليقية، فقد صارت عاصمة المملكة فترة ما، ثم استقلت وغدت إمارة مهمة، وقد كان ملوكها وأمراؤها لا يفتأون يشيدون فيها العمائر الدينية.

لقد غدت حلب، وخاصة بعد أن احتل الصليبيون أنطاكية وبعد أن دمّرها - أي أنطاكية - الظاهر بيبرس المركز التجاري الإسلامي لتجارات إيران، والهند، كما غدت الثغر الإسلامي الثاني بعد القسطنطينية وأزمير، واشتهرت أسواقها وخاناتها بعظمها وتعددها، وهكذا صارت حلب تحتوي على عدد عظيم من الأبنية الدينية، والعمائر المدنية التي تتكون منها مجموعة لا تقدر لدراسة تاريخ الحياة الاجتماعية في الشرق الإسلامي»[٧].

- عمل سوفاجيه في إحصاء آثار حلب:

يطلعنا المستشرق العلاّمة جان سوفاجيه في مقدمة كتابه عن الآلية التي اعتمدها في إحصاء آثار حلب فيقول:

«إن الإحصاء الوحيد الذي أعرفه عن آثار حلب هو احصاء الشيخ كامل الغزي. ولكنه إحصاء يجمع على صعيد واحد أبنية مختلفة الجنس والموضوع، ولا يعتمد على مخطط يصلح لإحصاء تلك الآثار.

وقد عمدت في إحصاء الآثار على الخطة التالية:

قسمت المدينة إلى أقسام، ثم طفت كل قسم شارعًا فشارعًا، وحارة فحارة على قدمي معتمدًا على خارطة المدينة (حجمها ١ / ١٠،٠٠٠)، وحددت عليها مواقع الآثار القديمة بالتقريب، ثم حققت تلك المواضيع على مخطط مصلحة السجل العقاري. وقد أحصيت مواضيع ما ينوب على ٣٠٠ أثر، مع العلم أنه لا يصح الجزم بأن هذا الإحصاء تام، بل ينبغي أن ننتظر ظهور آثار أخرى في بعض الأحياء المكتظة بالدور والمشوهة بالأبنية الجديدة، ولا يمكن معرفة الآثار القديمة إلاّ بهدم تلك الأبنية المستجدة.

وقد حدث معي في حلب أن اكتشفت أثرين صدفة، وبمجرد أن وجدت بابًا

مفتوحًا بعض الفتح. وهما الأثران اللذان يأخذان رقم ١٩، ورقم ٣٨. مطبخ العجمي، والمراحيض العامة في سوق المناديل. وهذا دليل على ما قلت آنفًا، ولا بدّ من أن تظهر في المستقبل آثار يجب أن تضاف إلى الإحصاء المعروف. وبعد فأنا واثق من أن الإحصاء الذي أقدمه هو إحصاء غير تام، ولا يصحّ أن يتخذ أساسًا لمخطط أثري كامل»[٨].

- نصوص مختارة من كتاب الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب:

قدم لنا سوفاجيه في كتابه هذا تعريفًا علميًا دقيقًا وموجزًا عن كل معالم حلب الأثرية التي عاينها بنفسه، فوصف الجوامع والمساجد والكنائس، وكنائس اليهود ودور الحديث والعلم والمشاهد والتكايا والزوايا والخوانق والحمامات والقساطل والسبلان والخانات والدور والقصور والبيوت الأثرية والمشافي وغيرها... وقد اخترنا منها في هذا البحث ما هو هام جدًا في مدينة حلب، وأيضًا ما هو غير مضاءً عليه بشكل كاف في الكتب التي تناولت آثار حلب. وأخيرًا ما يعود فضل اكتشافه إلى سوفاجيه نفسه.

١- ما هو معروف جداً وتكاد شهرته توازي شهرة حلب:

آ- سورية مدينة حلب:

يقول: «لهذا السور أهمية عظيمة لأنه الوحيد من نوعه في الشرق الإسلامي. على أن في مدينتي ديار بكر والقدس الشريف سورين أكمل من سور مدينة حلب، إلاّ أن سور القدس مبني في القرن الخامس عشر الميلادي / العاشر الهجري. أيام الدولة العثمانية، وليست له القيمة الأثرية والتاريخية التي لسور حلب من حيث فن العمارة العربية العسكرية. إن سورية ولبنان ليس فيهما بلدة لها سور أفضل بناء من سور مدينة حلب، على أن سور مدينة مصياف أبسط من بنائه ولكنه أحدث عهداً من سور مدينة حلب.[٩]

ب- أبواب سور حلب:

- باب النصر: بني في السنوات الأولى من القرن الثالث عشر، وقد هدم الجزء الرئيسي منه ففتح طريق عام، ولكن برجيه الدفاعيين ما يزالان محظوظين تمامًا. يجب صيانة ما تبقى من هذا الأثر الفخم بإزاحة الحوانيت التي تكاد تغطيه.

- باب أنطاكية: بني في عام ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥م، وقد جدد في مناسبات متعددة وإن نجفته متكسرة يجب إصلاحها كما يجب هدم الحوانيت التي تشوهه. وقد أقيم أمامه مركز كهربائي منذ عهد قريب.

- باب قنسرين: يرجع عهده إلى ما قبل القرن الثالث عشر الميلادي، على الرغم من الكتابة الموجودة على الباب الخارجي. وإن نجفة الباب الخارجي مفككة.

- **باب الفرج:** لم يبق منه 'لا برج جدد بناؤه أيام قايتباي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر للميلاد.

- **باب المقام:** جدد بناؤوه برسباي في القرن الخامس عشر. وهو الباب الوحيد في حلب الذي يحوي دهليزًا إلى يمينه يجب صيانته تمامًا.

- **باب الحديد:** وكان يسمى قديمًا باب القناة. بناه قانصوه الغوري سنة ٩١٥ هـ / ١٥٠٠م، وحالته العمرانية جيدة جدًا(١٠).

٢- ما تم اكتشافه من آثار على يد سوفاجيه:

أ - المطبخ العجمي:

يقول: «وكان لي حظ اكتشافه، وهو بقايا قصر قديم يرجع على القرن الثاني عشر للميلاد، وقد رمم في القرن الخامس عشر والسادس عشر. وكان دون شك ملكًا لأحد أمراء نور الدين، وهو القصر الوحيد من نوعه في الشرق الإسلامي.

له قبة تقوم على متدليات من الجصّ، وعقد يقوم على متدليات أيضًا وإيوان له غلق مقطّع وإيوان آخر له غلق منقوش، وفيه بقايا خشبيات قديمة ترجع إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر.(١١)

ب - المراحيض العامة:

هي بناء واسع تعلوه قبة عالية من القرن الثاني عشر الميلادي، وتحيط به غرف المراحيض. وقد جدده الأمير طاز سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧م. وهو أحد بناءين اثنين من نوعه في سورية، ولا تستدعي حالته القيام بإصلاح ترميمي سريع الآن سوى إزالة الحاجز الخشبي الذي يغطي المدخل والمتدليات كما يجب تجصيصه وتنقية جوه».(١٢)

٣- ما هو غير مضاء عليه بكثرة من آثار حلب:

١- الدور والقصور:

يقول: «في الشهباء اليوم عدد كبير من القصور والدور الجميلة المتقنة في عمرانها وهي مكونة في الغالب من واجهة مرتفعة ضخمة فيها الباب المؤدى إلى الصحن، وهو في الأغلب مكشوف تتوسطه بركة وتحيط به الأشجار التي غالبًا ما تكون برتقالاً أو ليمونًا أو نارنجًا. ومقابل المدخل إيوان ضخم عالٍ في جانبيه غرفتان أو قبّتان، ويحيط بالصحن غرف أرضية وعلوية.. وأجمل ما في هذه الدور والقصور غرفها المزدانة بالخشبيات السقفية والحائطية والزخارف الرخامية والمروية وكتاباتها المذهبة التي تشتمل على بعض آيات من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر الجميل. ومنها:

- **بيت صادر:** [محلة: الجديدة - دخلة الحصرم]

هو بيت جميل جدًا يرجع إلى نهاية

القرن السابع عشر أو أوائل القرن الثامن عشر، وقد اتخذ اليوم مدرسة لأبناء طائفة السريان الكاثوليك. وهو مكون من صحن واسع كان فيه حوض جميل وحديقة لطيفة، ولكن تحويل البيت إلى مدرسة قد أزال معالم الحوض والحديقة.

وأجمل ما في هذا البيت هو القاعة العلوية التي يعلوها سقف لعله أجمل سقف حلب الخشبية، فهو غني جداً بزخرفته وتلوينه وتذهيبه وأفاريزه ونقوشه البارزة وكتاباته. وقد نقل هذا السقف في الآونة إلى المتحف الوطني بحلب لحفظه فيه»[١٣].

وأما ختام هذه مقتطفات كتاب «الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب» فستكون لحلب كما يراها عاشق حلب سوفاجيه.

- حلب في عيني سوفاجيه:

يروي لنا العالم سوفاجيه في ثنايا كتبه التي حبّرها بجهده وعرقه عن حلب أسباب هذا التعلق الكبير بهذه المدينة فيقول: «... تكشف المعرفة الأعمق سمة أخرى لحلب: إنها الحيوية المدهشة للمركز المديني. فالمدينة هي نفسها موضوع للدهشة. إن تناسب أسواقها الواسع، وتلك الأسواق التي ترتص فيها الحوانيت على امتداد أكثر من ثمانية كلم، وعدد خاناتها وسعتها وروعتها والازدحام الصاخب الذي يستمر طوال النهار... كل ذلك يدهش الزائر ولو كان معتاداً على أجواء الشرق .

وليس هذا إلا مظهراً من مظاهر الحياة الاقتصادية لحلب؛ فأسواقها الكبيرة لا تضم إلا بائعي الأقمشة والسماسرة، بينما تجتمع نقابات المهن الأخرى في ضواحي المدينة، حيث تشغل شوارع كاملة كثيراً ما تتسع أبعادها، وتلتقي حتى في الأرياض البعيدة حيث تشاهد أسواقًا خاصة وجدت لزبن خصوصيين، تلك الأسواق لم تكن أقل تجهيزًا بالبضائع ولا أقل رواجًا من حيث الزبائن. بالإضافة إلى أن الطرق الكبيرة التي تتركز على طولها هذه التجارة تقدم الأزقة التي تؤمن المواصلات لمنازل السكن.

ففي كل مكان يحمل الأطفال على أكتافهم ربطات الخيوط الحريرية أو يقودون حميراً محملة، وفوق الأرصفة نرى خيوطًا ملونة معلقة تجفف، وقطعًا من الأقمشة القطنية الخارجة من قدور النيلة تتدلى على الأسطحة. وفي كل مكان تسمع الضربات الحارة لحرف النسيج، أو الصدى الواضح لمطارق الصقالين...

إن هذه الصفات الخاصة تطرح بسرعة على الفكر هذ التساؤل: ما هو سبب مثل هذا الغنى ومثل هذا النشاط؟ ولماذا غدت حلب أكثر سعة وسكانًا وجمالاً وحيوية وغنى من أية مدينة في سورية؟ وكيف توصلت مدينة في هذا القطر حيث نمت التكتلات المدينية العديدة بصورة استثنائية إلى هذا التفوق الواضح جداً؟

.. وأخيرًا أريد من الحلبيين الذين سيقرؤون هذه الصفحات الملاءى بالتعاطف الذي احتفظ به لهم، وبالود العميق الذي أكنه لمدينتهم، أن يغترفوا منها أسبابًا جديدة للثقة بأنفسهم وبمصير بلدهم: متعلمين منها كيف كبرت حلب في الماضي بفضل الجهد الدائب لأبنائها، ذلك الجهد الذي يعطيهم قوة الروح الضرورية لضمان مستقبلهم».(١٤)

سوفاجيه في عيون مستشرقين آخرين.

كان لسوفاجيه حضوره في الشرق وفي الغرب معًا، كما كان له صداقاته مع علماء وباحثين ومستشرقين عديدين في بلدان عديدة. وقد اخترنا ثلاثة شهادات لثلاثة من أكثر أصدقائه قربًا إلى نفسه ومن مهنته. وقد عاشوا معه ووقفا عن كثب على أحلامه وطموحاته العلمية التي كانت تضج بصدره وتمنعه من الانتباه إلى

صحته.

١- سوفاجيه بعيني المستشرق لويس روبير:

يقول لويس روبير واصفًا شخص سوفاجيه: «كان جان سوفاجيه يتمتع بنشاط متنوع؛ فهو مستعرب وناشر نصوص ومترجم وقارئ خطوط وآثاري. ومع أن إنتاجه كان متنوعًا إلاّ أنه كانت تجمعه وحدة عميقة.

وكان روبير قد طالع باهتمام كتابات سوفاجيه، وقال مقيمًا بعضها «كانت مقدمة سوفاجيه البيبليوغرافية للتاريخ الإسلامي مثالاً رائعًا متميزًا. إنها عمل معلم لأنها مصادر مشروحة، تضع كل أمر في مكانه الخاص به، وتميز بين الجيد والرديء، والضروري والثانوي، والأصيل والملفق، والجديد والقديم، وتؤلف سلسلة متصلة الحلقات تطرح المعضلات.

وهو في كتابه عن مؤرخي العرب الذي نشره في عام ١٩٤٦، يكتب صفحات مختارة ومترجمة وموضوعة في أطرها التاريخية والأدبية.

وقد بيّن في كتابه عن حلب إسهام سورية في حياة البحر الأبيض المتوسط وكيف أن تطور مدنه الكبيرة كان متأثرًا كل التأثير بأحداث خارجية، بعيدة عن المنطقة. وهو يقول في خاتمة درس افتتاح College De France: «إن تاريخ سورية منذ الفتح العربي لا يغدو مفهومًا، ولا يمكن أن يكون واضحًا إلاّ شرحت صلاتها بمصر والعراق وفارس وتركيا. فحول تاريخ سورية يتحلق تاريخ الشرق الأدنى كله، التاريخ الذي علينا أن نصنفه. فأنا عندما أكرس قسمًا كبيرًا من عملي لسورية فلأنني أعي

أعمق الوعي المهمة التي كرست لها جهدي، فأنا لا أعمل وفق ما تتيحه لي الظروف والصدف بشكل أعمى، بل إن كل شيء مرتب ومنظم:.[١٥]

٢- سوفاجيه بعين المستشرق بلاشير:

كتب بلاشير في ذكرى رحيل صديقه وزميل دربه بلاشير يقول: «منذ عدة أشهر، ونحن نشعر بأن صحته تسوء، وحاولنا دون جدوى أن نزرع في داخله الخوف على صحته، وفي الخريف الفائت فرض الألم نفسه عليه، ووضع سوفاجيه أمام مواجهة مع هذه الشجاعة المغلفة بالسخرية التي كانت إحدى الصفات التي تعجبنا فيه.

وأخيرًا في إحدى مساءات كانون الأول، ترك باريس إلى كامبو مخلفًا في ذواتنا الأمل في التراسل، لكنه غادرنا في الربيع الذي طالما انتظره، ففي الخامس من آذار جاءنا نبأ مفاده أن جان سوفاجيه لن يظهر بيننا بعد الآن.

وكان جان سوفاجيه المستشرق قد سافر إلى سورية في عام ١٩٢٤، وبعد مرور أقل من أربعة أشهر على وصوله إلى دمشق استطاع أن يجمع معلومات كافية عن البلد.. وهكذا فإن مرحلة جديدة بدأت لديه. لقد ولد فيه الباحث.

رفض سوفاجيه لقب المستعرب، وهو محق في هذا ومخطئ في آن، محق لأن علمه لم يكن محدودًا بالبلاد العربية بل امتد إلى بلاد فارس وتركيا، وكوّن معرفة جيدة تلفت النظر إليها في علم الإسلاميات.

وهو أيضًا مخطئ برفضه هذا اللقب، لأنه وبمناسبة إقامته في سورية حصل على دبلوم في اللغة العربية المحكية إضافة إلى إتقانه اللغة الفصحى.

وأخيرًا فإن كل علومه وكل لغاته الإسلامية التي يتقنها كانت مجرد أدوات لخدمة علم أوسع وأعم: هو تاريخ العالم العربي.[١٦]

٣- سوفاجيه بعيني الباحث الدكتور سامي الدهان:

كتب الدكتور الدهان تحت عنوان «سيرة عالم» في مجلة الرسالة عن سوفاجيه وكان من المقربين إليه والمتتبعين عن شغف لتفاصيل حياته العلمية والعملية. وقد خلف لنا في هذا المقال صورة ولا أصدق عن هذا العالم الذي نسي العالم الحاضر، وأمضى العقود في التنقيب والبحث عن العالم الماضي الذي شغل حلب قبل قرون.

يقول: «كان عامة الجمهور في حلب يجدونه عند كل حجر عتيق من أحجار

المدينة، يتسلق الصخر، ويعلو الجدران القديمة والأسوار المتهدمة، وبيده ورقة وقلم يخط سطوراً ويمحو سطوراً، لا يبالي بالهامس حين يمر أو الساخر حين يتحدث ، فالناس عندنا لم يألفوا من يصاحب الصخر يومه، ويتحدث إليه ساعات من النهار، يستنطقه عن الماضي القديم، ويستخبره عن الأجيال السالفة. وكان منظر الرجل يثير كذلك دعابة حينًا ودهشة حينًا آخر، فقد أرسل لحيته، ولبس البسيط من الثياب، وجلس جلسة ابن البلد إلى الحجر والتراب، يقتلع العشب عن الحجر، ويمسح عنه الغبار كأنه شحيح يفتش في ثناياه عن كنز مدفون، وثروة مخبأة.

على أن الناس يمرون بهذا الصخر والحجر عشرات المرات لا يبالون ولا يأبهون فقد ألفوا أن يروا في سبيلهم كتابات عريضة لم يحاولوا أن يقرأوها وتواريخ مسطورة لم يجربوا أن يفهموها.

وظلّ على ذلك سنين انتهى بعدها إلى كتاب صغير نشره بالفرنسية، صوّر فيه الأبنية الأثرية، ورسم مصوراً لهذه الأبنية وخلص إلى نظرية جديدة هزّت المستشرقين طرباً، فقد وقفوا على صورة حلب كما كانت قبل ألف عام أو تزيد، وحدد أماكن الجدران والأسوار من هذا المصور، وبيّن مواقع المساجد والجوامع والتكايا. وكأنه قد بنى المدينة على ورق من جديد.

فتنبّه المؤرخون إلى ما تحويه حلب في حاضرها من بناء قديم يرى سوفاجيه أنه أقدم ما بقي في سورية من آثار حتى إنه اكتشف على أحد جدران المباني كتابة هيروغليفية يعود تاريخها إلى ألفي سنة سلفت. ولم يقف عند هذا حتى كتب رسالة دكتوراه درس فيها تطور البناء في حلب على مدى الأجيال؛ فعرض للمدينة في عهد اليونان والرومان والعرب، وتوجّت الرسالة بكثير من الثناء، وهتف المستشرقون للدارس والباحث، وقد قضى شطراً من عمره في بلاد الشام يتقرب إلى تاريخه ويتفهم ماضيه العمراني.

ولما سكن سوفاجيه دمشق كتب كذلك عن أبنيتها وحاول أن يصنع لها ما يصنع لشقيقتها حلب، ونشر بحوثًا عن الأبنية في دمشق على عهد الأيوبيين.

وتابع دراساته وواصل نشر كتبه حتى بلغت العشرين، فنقل من الربوع التي أحبها وعاش بين جدرانها إلى باريس، وعين أستاذًا في «الكوليج دو فرانس» ومديراً للدراسات كذلك..

وكأني بالعالم المؤرخ، وهو يبلغ الخمسين من عمره، قد أنهكه الدرس وحطّمه الجهد، وأخذت منه المؤلفات ما

أخذت من عباقرة الباحثين، فنال منه المرض ولم يثنه نصح الأطباء ورفق الأصدقاء حتى اختطفه الموت وهو يترجم ويصحح كتبه عن الشام والمسلمين،. فقضى، وملازم المطبعة بين يديه، وترجمة التاريخ الإسلامي تحت وسادته، وأغمض عينيه على مصور الشام الذي يزين غرفته...

فبكاه أصدقاؤه الذين عرفوا فيه التسامح والإخلاص، وبكاه طلابه الذين رأوا فيه دماثة الخلق وتواضع العلم وتفاني الأستاذ.

ولا شك في أن حلب الشهباء ستجزيه أجر ما عمل وتفيد من درسه، وتقتبس من بحثه فتكمل ما لم يكمل من نص وتنشر ما لم يتم من مخطوط.

ولا شكّ في أن المؤرخين والباحثين عندنا سيجدون في سيرته سيرة تحتذى وأسلوبًا يقتفى وطريقة تتبع.(١٧)

الحواشي

١- العقيقي، نجيب، المستشرقون، القاهرة، دار المعارف، ط٤، لا تاريخ، ٣١٢/١، الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٩٠، ١٠٨/٢.

٢- جحا، محمد فريد، تحية إلى المستعرب العالم جان سوفاجيه، حلب، ١٩٩٢ لا مكان، ص٣.

٣- المرجع نفسه، ص٤.

٤- جحا، تحية إلى سوفاجيه، ص -٧-١٢ بتصرف.

٥- سوفاجيه، جان، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ترجمة أسعد طلس، دمشق، مديرية الآثار العامة في سوريا، ١٩٥٦، ص٣.

٦- سوفاجيه، الآثار الإسلامية، ص٦.

٧- المصدر نفسه، ص٧.

٨- نفسه، ص١١، ١٢.

٩- نفسه، ص٢٢.

١٠- نفسه ص٢٣.

١١- نفسه، ص٦٨.

١٢ - نفسه، ص ٩٩.

١٣- نفسه، ص٢٩٠.

١٤- نفسه، ص ١٧.

١٥- تحية إلى ذكرى جان سوفاجيه، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، ص١١٣.

١٦- Journal Asiatque, Fascicule No. 1 Annee 1951. Tome Ccxxxix. R. Bla Chere. Pl.

١٧- مجلة الرسالة، العدد ٨٧٩، لأيار من العام ١٩٥٠، ص ٥١٨.